ثيوسيديدس المؤرخ وبركليس الخطيب

وشجاعة العرب

قرأنا لمترلنك اكتب كتّاب البلجيك ان لم يكن اكتب اهل اوربا في هذا العصر فصلاً بناهُ على رثاء بركليس لقتلى اثينا في حربها مع اسبرطا على ما ذكرهُ ثيوسيديدس (اوثيوكيديدس) المؤرخ اليوناني . فرأينا ان نلخصهُ ونلحقهُ بشيء مما قيل عن شجاعة العرب

وثيوسيديدس فيلسوف ومؤرخ ولد قبل المسيح بنحو ٤٧ سنة وهو اول من اعتمد التحقيق من المؤرخين فقد قال انهُ لم يصف الاَّ المعارك التي شهدها بنفسهِ او التي الذين كانوا فيها ووقف على رواياتهم وقابلها بعضها ببعض وفحصها بمحك العقل . وبركليس اكبر ساسة اليونان ولد سنة ٤٩٧ قبل المسيح وتتلمذ للفيلسوف انكسوراس واشتهر بكرم الاخلاق وذكاء العقل وبلاغة العبارة وقوة العارضة والتفاني في حب وطنهِ

وهاك خلاصة ما قالهُ مترلنك تمهيداً لرثاء بركليس قال :

(١)

حوادث هذه الايام اعظم حوادث التاريخ وما دامت جارية يليق بنا ان نلتفت الى اخبار العصور الغابرة لعلنا نجد فيها ما نستفيد منهُ ونتعظ بهِ ونستند اليهِ . فنجد ان حرب اثينا مع اسبرطا التي تأججت نارها سبعاً وعشرين سنة تماثل الحرب التي نحن مشتبكون فيها الآن . والذي ذكر حوادث تلك الحرب وفصّلها هو اعظم مؤرخ قام في المكونة واول مؤرخ ذكر الحقائق الثابتة التي لا محل للشك فيها ثم استدلَّ منها على ضمائر اصحابها وما يمكن ان ينتج منها استدلالاً يؤيدهُ العقل . فهو اكتب الكتّاب ولا يضارعهُ الاَّ تاشيتوس المؤرخ الروماني . اما طاشيتوس فكان شاعراً ينظم غرر المراثي ومصوراً يصور المهاوي بما فيها من المخازي واما ثيوسيديدس فكان سياسيًّا يحثُّ على مكارم الاخلاق والمعيًّا يحترق بصرهُ حب الغيب ومصوراً يرسم صور البلدان الحرة وعقول الاذكياء النوابغ والكرماء الافاضل الذين كان منهم سكان البلاد اليونانية في تلك الازمان . الاول يجلس في الظلام يجمع الاخيلة بيديهِ ويضمها بعضها الى بعض وينظمها عقوداً ولكنهُ لا يزيل شيئاً من ظلمتها . والثاني يجمع اشعة النور ويصوغ منها احكاماً بيّنة مشرقة على ما فيها من التحقيق . الاول ضجور شديد الوطأة مهتضم للحقوق ولو عن غير قصد منهُ . والثاني صبور منصف يسمو بعقلهِ

الى اسمى ما يبلغ اليه ذهن الانسان لا غرض له الاَّ اقامة قسطاس العدل والسعي وراء الخير العام والمجد الخلَّد . تجد الرونق والبهاء في كل ما كتبهُ حتى في وصفهِ لوباء الجارف

(٢)

الحرب بين اثينا واسبرطة كالحرب بين فرنسا والمانيا . غير ان حربنا الآن قائمة بين امة متمدنة وامة متوحشة ادبيًّا واما حرب اثينا واسبرطة فكانت بين طائفتين من امة واحدة . ولكن تينك الطائفتين كانتا مختلفتين ادبيًّا كل الاختلاف فالاولى كان شعارها السلام والبشاشة ولم تكن تُعنَ الاَّ بما يعود عليها بالراحة والهناء وبما تتمتع بها حواسها من المناظر الجميلة والملذات المختلفة وقد خرجت الى الحرب كأنها خارجة الى ملعب طلقة المحيَّا حاسبة الحرب من الملاهي التي تروِّض الاجسام والفرائض التي يقوم بها المرء عن طيب نفس . ولم تكن قد استعدت للحرب ولا اخذت شيئًا من اهبتها بل لم تكن تعنَ بالمستقبل معتمدة على ما خُصَّت بهِ من الشجاعة الفطرية وسعة الحيلة فنجت من مشاق الاهتمام بالمستقبل واستطاعت ان تقابلها بعزيمة صادقة كمن قضى العمر في معالجتها

اما اسبرطة فلم يكن لها شغل شاغل غير الحرب والتأهُّب لها فكانت كتيبة عبوسة مجردة على الدوام للحرب والصدام تكره كل ما يحلل وجود الانسان على الارض . امة التخريب والسلب والنهب امة الوحش والخز وطأتها ثقيلة على كل ما حولها وعلى نفسها ايضًا . تسعى الى غاية تعدُّ من اسمى الغايات لو كان الغرض من وجود الانسان على الارض ان يكون آلة صماء وعبدًا للرؤساء . ولكنها كانت تخالف الذين نحاربهم نحن الآن في انها كانت في التالب تحب العدل وترفع عن الدنايا وتحترم الآلهة وهيأ كلها وتقوم بالعهود ولا تنقضها . ولكن لو أُطلق لها العنان تحكم بلاد اليونان كلها كما تشاء من اول عهدها لما نشأ في تلك البلاد ما نشأ من المفاخر ولما حفظ لها التاريخ الاَّ آثار قوتها الحربية التي لا نفع منها ولا عجد لها ولفقد العالم ذلك الكوكب النوراني الذي يتجه نظرهُ اليهِ حتى الآن

(٣)

وكانت نتيجة الصدام بين هاتين القوتين ان فازت اسبرطة في اول الامر فوزًا حملها على الغرور حتى فقدت تمارهُ واستطاعت اثينا ان تكبح جماحها سبعًا وعشرين سنة وهي كأنها تقاوم الاقدار . بل لما اعتقدت اسبرطة انها تسحق اثينا في اسابيع قليلة وثنت اثينا لها وقفة الخصم العنيد سبع عشرة سنة والنصر في يدها رغمًا عن الوباء الجارف الذي اهلك ثلث سكانها وربع جيشها . ولم يقلب لها الدهر ظهر المجن الاَّ بعدما اصغت الى مشورة متقلبيها

وبعثت بكل اسطولها وجنودها الى صقلية ومع ذلك استطاعت ان تقاوم عشر سنوات اخرى وكانت هي القاضية على نفسها اخيراً . ولا يقع في التهلكة الا من يلقي بيديه اليها

(٤)

وليس من غرضي ان اتوسع في هذا الموضوع وانما انا اقصد ان اعيد قراءة صفحة كُتبت منذ اكثر من الفي سنة تأبيناً للابطال الذين فقدتهم اثينا في الدفاع عنها وهي تناسب حالنا بعد ان حلّ بنا ما حل من الاحزان التي يليق بنا ان نخفف مرارتها وفقدنا من فقدنا من الرجال الذين يجب علينا تأبينهم . فان عادات اليونان كانت تقضي بجمع عظام القتلى الذين حُرقت جثثهم في ميدان القتال والعود بها الى اثينا في آخر كل سنة . وكان السكان يختارون ابلغ خطيب منهم لتأبينهم فوقع اختيارهم على بركليس الشهير فبدأ بذكر مناقب الشعب الاثيني وشرائعه واستطرد الى التأبين التالي فقال

لم اذكر ما ذكرتُ من مفاخر بلادنا الا لابيّن ان ليس لخصومنا مفاخر مثلها ليأسفوا على فقدها وان الرجال الذين فقدناهم جديرون بكل مدح واطراء . ولقد قمتُ بالجانب الاكبر من مدحهم لان اثينا التي وصفتها انما بلغت ما بلغتهُ بشجاعتهم وشجاعة امثالهم من الرجال الذين تنطبق شهرتهم على استحقاقهم . واذا فتشنا عن مقياس الاستحقاق وجدناهُ فيما ختموا حياتهم بهِ او فيما عملوهُ من الاعمال التي تدلُّ عليهِ اذ من العدل ان يقال ان وقوف الانسان وقفة الصديد في الدفاع عن وطنهِ تغطي ما كان فيهِ من النقائص . والحسنات يذهبن السيآت . والفضائل العمومية تزيل المعايب الشخصيَّة . وما من احد من هؤلاء اضعف الغنى عزيمتهُ بما يترتَّب عليهِ من الملاذ او صدهُ الفقر عن التعرض للمخاطر بما يعدهُ بهِ من الاباحة اذا دارت الدائرة على الاغنياء . بل انهم كلهم حسبوا الانتقام بالثار من الاعداء افضل الغنائم والمخاطرة بالنفس في سبيلهِ اجمل الاعمال فساروا الى الحرب متهللين عاقدي العزيمة على تجشُّم كل المشاق وتحمُّل كل المخاطر لكي يأخذوا بثارهم من عدوهم والقوا اعتمادهم على انفسهم ولو كانوا يعلمون ان الفوز قد لا يكون لهم مفضلين عزَّة الموت على ذلَّة الحياة فقروا من العار وقابلوا الردى وجهاً لوجه لانهُ السبيل الى المجد

ففي هؤلاء الرجال كما يليق بالاثينيين وعليكم انتم ايها الاحياء ان لا تكونوا دونهم في ساحة الوغى ولو طلبتم من الالهة ان يكون الفوز لكم . وعليكم ان لا تكتفوا بالادلة الكلامية التي توجب عليكم الدفاع عن وطنكم وان كانت هذه الادلة مما يحسن ان يلجأ اليهِ الخطيب في محفل مثل هذا يقدرها قدرها بل ينبغي ان تحققوا باتفسكم قوة بلادكم وتمتعوا انظاركم

يشاهدها كل يوم حتى يملأ حبها افئدتكم . ومتى تجلّت لكم عظمتها كما هي ينبغي عليكم ان تعلموا انها بلغت ما بلغت من المجد والسؤدد بشجاعة ابنائها وتفانيهم في حبها واعتقادهم ان ذلك من اوجب الواجبات عليهم وانهُ ما من فشل كان يمكن ان يحرم بلادهم من بسالتهم بعد ان القوها امام قدميها عن طيب نفس . نعم ضحّوا انفسهم اجماعاً في مصلحة بلادهم فنال كل واحد منهم الجزاء الذي لا يفنى ودُفنوا ولكن ليس في المدافن التي تحوي عظامهم بل في المجد الميا كل حيث يبقى اسمهم خالداً يذكر كلما ذكرت فعالم المجيدة . والارض كلها بما وسعت مدفن للابطال وذكرهم في اقصى المالك تحويهِ القلوب . انظروا الى هؤلاء واتخذوهم قدوةً لكم واعلموا ان السعادة ثمرة الحرية والحرية ثمرة الشجاعة ولا تحجموا عن مخاطر الحروب . الصعاليك لا يخاطرون لانهم لا يرجون شيئاً وانما يخاطر من يخشى الذوائب ومن اذا حلّت بهِ هيئت بامانيهِ وكان عيشُها عليهِ ثقيلاً . والجبن والذل اشد على الحرّ من موت يصيبهُ وهو في عنفوان قوتهِ وحبهِ لوطنهِ

ما قمت لاطلب منكم ان تعزوا بل لاطلب منكم ان تسرّوا . هذا ما اطلبهُ من اباء هؤلاء الابطال . والمرء معرّض للموت في كل لحظة ولكن السعيد من يموت ميتة مجيدة مثلما مات هؤلاء الذين تندبونهم الآن بعد ان قُدّر لهم ان تنتهي حياتهم هذا المنتهى المجيد . ولا انكر انهُ يصعب عليكم ان تعزوا عن الذين فقدتموهم ولا سيما اذا كنتم ترون امثالهم في بيوت جيرانكم فيذكرونكم بهم . ولكن الذين لا يزالون منكم في سن الكهولة سيلد لهم اولاد يقومون مقام الذين فقدوهم و يكونون سياجاً لوطنهم لان الرجل الذي لا يودُّ ان يكون ابناً لا ينتظر منهُ ان ينصف وطنهُ و يقوم بنصرتهِ . والذين جازوا السن التي ينتظر فيها اخلاف النسل حسبهم تعزيةً انهم قضوا الجانب الاكبر من عمرهم آمنين والقليل الذي بقي منهُ يعزيهم فيهِ شرف الذين فقدوهم . والحب والشرف لا يشيخان ولا يسرُّ قلب الشيخ في شيخوخته مثل الشرف » انتهى

هذا الكلام الذي قيل منذ ثلاثة وعشرين قرناً يرنُّ صداهُ في نفوسنا كأنهُ قيل امس وهو ابلغ تأبين للذين فقدناهم ولو كان الميّاً فتحن الرؤوس امام ما فيهِ من البلاغة الفائقة وامام ذلك الشعب العظيم الذي فهمهُ وعمل بهِ . انتهى

رأينا ان نلحق بهذا الفصل كلاماً في الشجاعة روي عن لسان اسماء بنت ابي بكر الصديق قالتهُ لابنها عبدالله بن الزبير بن العوام لما تفرّق عنهُ اصحابهُ واشتد الحصار عليهِ في خلافة

عبد الملك بن مروان . فان اخاهُ عروة جاءهُ حينئذٍ وقال لهُ ان عبد الملك يعطيك الامان على ما احدثت انت ومن معك وان تنزل اي البلاد شئت ولك بذلك عهد الله وميثاقهُ . وكان عبدالله قد امتنع عن مبايعة يزيد بن معاوية وثار عليهِ بالحجاز بعد ان كان سيف الامويين القاطع وادّعى الخلافة واخذ البيعة لنفسهِ في الحجاز وكاتب اهل العراق واليمن وخراسان ومصر فوافقهُ الجم الغفير منهم على خلع بني امية . ثم قوي امرهُ لما توفي يزيد سنة ٦٤ للهجرة ودانت لهُ اكثر البلاد ولكن اهل الشام بايعوا مروان بن الحكم الاموي . ثم توفي مروان سنة ٦٥ وخلفهُ ابنهُ عبد الملك فوجد الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال ابن الزبير وكان قد انتقض عليهِ اكثر اتباعهِ لتضييقهِ على محمد بن الحنفية . فلما قال لهُ اخوهُ عروة ما تقدم دخل على امهِ وقال يا اماهُ قد خذلني الناس حتى ولدي واهلي ولم يبقَ معي الاَّ اليسير ممن ليس عندهُ اكثر من صبر ساعة . والقوم يعطوني ما اردتُ من الدنيا فما رأيكِ . فقالت انت اعلم بنفسك ان كنتَ تعلم انك على حق واليهِ تدعو فامضِ لهُ فقد قُتل عليهِ اصحابك فلا تمكّن من رقبتك يتلعّب بها غلمان بني امية . وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت اهلكتَ نفسك ومن قُتل معك . وان قلتَ قد كنتُ على حق فلما وهن اصحابي وهنتُ وضعفتُ . فليس هذا فعل الاحرار ولكم خلودكَ في الدنيا . القتل احسن

فدنا عبد الله فقبّل رأسها وقال هذا والله رأيي الذي قمتُ بهِ داعياً الى يومي هذا وما ركنتُ الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها ولكني احببت ان اعلم رأيك فتزيديني بصيرةً مع بصيرتي . فانظري يا اماهُ فاني مقتول فلا يشتد حزنكِ وسلّي الامر لله فان ابنك لم يتعمّد اتيان منكر ولا عملاً بفاحشة ولم يجُر في حكم ولم يغدر في امان ولم يتعمّد ظلم مسلم ولا معاهد . ولم يبلغني ظلم من عمّالي فرضيت بهِ ولم يكن شيء آثر عندي من رضاء ربي . اللهم اني لا اقول هذا تزكيةً مني لنفسي انت اعلم بي ولكني اقولهُ تعزية لامي لتسلم عني

فقالت امهُ اني لارجو من الله ان يكون عزائي فيك حسناً . ان تقدمتني احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك اخرج حتى انظر الى ما يصير اليهِ امرك . ثم قالت اللهم اني سلمتُ لامرك فيهِ ورضيت بما قضيتَ فاثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين

وسواء كان هذا الكلام ممّا قالهُ عبد الله بن الزبير وامهُ او ممّا وضع على لسانيهما على اختلاف الروايات فيهِ فهو عنوان الشجاعة وترجمان البسالة . وما اشجع ممّن تعرض عليهِ الراحة والوداعة فيفضل الذعرة مما يحسبهُ حقاً ولو تحت ظلال السيوف